حـــــــــــــــــوارات

القـــاص والـــروائي المغـــربي محمـــد عـــز الـــديـن الـتـــازي:

" قليلون هم الذين وصلوا إلى تحقيق القيمة الأدبية بعمل واحد إن الكَمّ هو الطريق للوصول إلى النوع "

حاوره: محمد سعيد الريحاني

الروائي المغربي محمد عز الدين التازي من مواليد سنة ١٩٤٨ بمدينة فاس ، حاصل على الدكتوراه في الأدب الحديث ، يعمل أستاذا للتعليم العالي بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان ، عضو عدة جمعيات وهيئات ثقافية. ترجمت بعض مجاميعه القصصية القصيرة إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والسلوفانية ، وترجمت روايته "مغارات" إلى الفرنسية. اختيرت روايته "أيام الرماد" من بين أفضل ١٠٥ رواية عربية نشرت في القرن الماضي. جمعنا اللقاء به فكان هذا الحوار.

محمد عز الدين التازي

❖ *إذا طُلبَ من الأديب محمد عز الدين التازي إكمال صَورته الإبداعية المرسومة في ذهن القراء، فكيف يقدم مسيرته وكيف يسترجع بداياته ويستحضر صداقاته الإبداعية؟*

– في مطلع الستينيات من القرن الماضي، بدأت أحاول الكتابة وأنا طالب في الثانوي. حاولت أن أكتب الشعر تحت تأثري بمقروءاتي في الشعر العربي القديم والحديث، لكني أدركت أن طريق الكتابة الشعرية لن يوصلني، فقد أدركت بحس خاص أن الرداءة هي ميسم ما كنت أكتب. كانت الرغبة في الكتابة تراودني بقوة، بدوافع داخلية وأخرى خارجية. الدوافع الداخلية غير مفسرة، والدوافع الخارجية تعود إلى أنني كنت أحيا وحيدا، أستشعر فراغا كبيرا في حياتي، لا أملكه إلا بالقراءة، والقراءة في هذه المرحلة لم تكن موجهة من قبل أحد، لذلك كنت أقرأ كل ما يصل إلى يدي من كتب.

بدءا من منتصف الستينيات، تعرفت على مجلة الآداب ومجلة شعر البيروتيتين، وبدأت قراءاتي تتوجه نحو التراث الأدبي والفكري العربي، والأدب العربي الحديث، ومترجمات الأدب العالمي. أعجبت بقصص يحيا حقي ويوسف الشاروني ويوسف إدريس وقرأت كل أعمال نجيب محفوظ التي كان قد نشرها، وما كتب حولها من نقد، وخاصة كتابات صبري حافظ. كما قرأت الأدبيات الوجودية والماركسية والكثير من مترجمات الأدب العالمي. وفي هذه المرحلة، كتبت قصصا قصيرة وبدأت النشر سنة ١٩٦٦ في الملحق الثقافي لجريدة الأنباء ثم في صفحة أصوات وفي الملحق الثقافي لجريد العلم. كنت ما أزال طالبا في ثانوية القرويين بفاس، ومقروءاتي ولدت لدي صدمة كبيرة بالمقارنة مع ما كنا ندرسه. في نفس الثانوية وجد معي، وفي نفس المرحلة، القاص أحمد بوزفور، والشاعران عبد العلي الودغيري وأحمد مفدي، لكني سبقتهم إلى النشر، إن لم أكن قد سبقتهم إلى الكتابة. كما تعرفت على الشاعر محمد بنيس في نفس المرحلة، وقبل أن ننتقل إلى كلية الآداب بفاس، وتعرفت على الشاعر محمد السرغيني الذي مدني بالكثير من الرعاية الأدبية.

في كلية الآداب، التي التحقت بها سنة ١٩٦٧، تعرفت على الكثير من الكتاب والشعراء الشباب: أحمد المديني، محمد بن طلحة، المهدي أخريف، إدريس الملياني، إدريس الناقوري، أحمد زيادي، وكثيرين، كانوا مهووسين مثلي بأسئلة الكتابة. تعرفت أيضا على أساتذة تشغلهم قضايا النقد والإبداع، وهم: محمد برادة، حسن المنيعي، محمد الخمار الكنوني، أحمد المجاطي، وأحمد اليابوري، وإبراهيم السولامي. وهؤلاء الأساتذة، أصبحوا بسماحتهم وتواضعهم أساتذة وأصدقاء، فتحوا لي بيوتهم، وحبوا كتاباتي بالكثير من التشجيع. في سنة ١٩٦٨ نلت جائزة جمعية البعث الثقافي بمكناس، التي كان الأستاذ حسن المنيعي هو المشرف عليها، وفي سنة ١٩٦٩ نلت جائزة القصة القصيرة، التي نظمها الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، فرع فاس، وكان في لجنتها الأساتذة: برادة واليابوري والمجاطي. علمتني هذه الوضعية: الاسترشاد بمقروءاتي، رفقة الأدباء الشباب، نيل جائزتين، الإصغاء إلى أسئلة الأدب والنقد التي كان يصوغها أساتذتنا من الغليان السياسي للمرحلة ومن الثقافة الطلائعية الجديدة التي كان يعرفها العالم.

لذلك أقول إنني قد أتيت إلى الكتابة من القراءة، وبعبارة أخرى، لقد تعلمت الكتابة من القراءة.

❖ *من بين الكتاب من جيل الرواد، يبدو أن محمد عز الدين التازي من القلائل الذين نالوا نصيبهم من المواكبة النقدية والتكريم والاعتراف في حياتهم. إلى ماذا تعزون ذلك؟*

– ليس من حقي أن أفسر ما قام به الآخرون تجاه أعمالي من مواكبة نقدية، أو احتفاء بشخصي، فهم الأجدر بأن يجيبوا عن هذا السؤال. أما من جانبي، فأنا لم أحرض أحدا على أن يكتب عن عمل من أعمالي، ولم أسع إلى الجوائز، إيمانا مني بأن الجوائز هي التي تأتي إلى الكاتب وليس هو من يسعى إليها، ولم أدفع بجهة من الجهات التي كرمتني، وهي كثيرة، إلى أن تقوم بهذا التكريم. إنني بالمناسبة، أشكر تلك الجهات على مبادرتها التي هي محل تقدير مني، لكني غارق في مشاريعي الأدبية، ولست ممن يكتبون ويروجون بالدعاية لأعمالهم.

❖ *الراحل، الشاعر الكبير محمد الخمار الكنوني، صاحب الديوان الشعري الوحيد: "رماد همبريس" الصادر سنة ١٩٨٧ ، في أحد حواراته نصح الشعراء الشباب بأن يكونوا مقلين في إنتاجاتهم. بالنسبة لمحمد عز الدين التازي صاحب أزيد من خمسين عملا إبداعيا في شتى الألوان الأدبية، من القصة القصيرة مرورا بالرواية والمذكرات ووصولا إلى أدب الأطفال، بماذا تنصح الكتاب الشباب؟*

– كان المرحوم الشاعر الكبير محمد الخمار الكنوني قد وجه إلي نصيحة من نوع آخر، وهي أن أكتب باستمرار، وألا أنتظر نشر عمل حتى أكتب آخر. والمرحوم محمد الخمار كان قد حدثني عن رواية شرع في كتابتها، فهو نفسه، كسعدي يوسف، وغيرهما من الشعراء، وجدوا في الكتابة السردية ما يغري بارتيادها. وحقا، فلقد كان محمد الخمار، إلى جانب أحمد المجاطي، شاعرين مقلين، يقطران قصائدهما ويعتصران معانيها وصورها ولغتها من تكثيف شعري دال وموح ورامز. ذلك كان توجههما في الكتابة الشعرية. أما بالنسبة إلي، وإلى كتاب وشعراء مغاربة آخرين، فالكم ليس دليلا على القيمة الأدبية للكاتب أو الشاعر، ومع ذلك، قليلون هم الذي وصلوا إلى تحقيق القيمة الأدبية بعمل واحد، كما حدث مع رامبو على سبيل المثال. إن الكَم هو الطريق في رأيي، للوصول إلى النوع، أي إلى التنويع في الأشكال والمضامين. إن روائيا كنجيب محفوظ، وقد نشر أكثر من أربعين رواية، ما كان بإمكانه أن يوسع من عوالمه ومن بنائه للأشكال، وكذلك الأمر بالنسبة لروائيين عرب، كإدوار الخراط ،إلياس خوري، نبيل سليمان، ومغاربيين كواسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، صلاح الدين بوجاه، محمود طرشونة، ومغاربة كمبارك ربيع، أحمد المديني، والميلودي شغموم.

أنصح الكتاب الشباب بألا يستمعوا إلى نصيحة أحد، ففي مجال الكتابة الأدبية، لا شيء ينير الطريق غير تلك النصائح التي يوجهها الكاتب لنفسه، وهو يحفز وعيه النقدي، المرافق للكتابة، على التوجيه نحو يخفف من غلواء المغامرة، وما يُبقي للكتابة قوتها الدلالية والجمالية. إن من يستحضر هذا الضمير لا يحتاج إلى نصيحة أحد، كما أن من يسترخص الكتابة هو الآخر، لا يحتاج إلى نصيحة أحد.

❖ *كنتم من رواد الكتابة القصصية في المغرب، لكن سرعان ما تحولتم إلى الرواية، وقطعتم صلتكم بكتابة القصة القصيرة. هل القصة القصيرة مجرد عتبة لدخول عوالم السرد المطول؟*

– ليس صحيحا أنني قد قطعت صلتي بكتابة القصة القصيرة، فهذا الجنس الأدبي القائم على اللحظة، والتكثيف، والشاعرية، يظل دوما، جنسا أدبيا له قدرته على التقاط تفاصيل دالة من اليومي، وقدرته على ربط الصلة بالقارئ، من خلال النشر في الجرائد والمجلات. لم أعد أداوم على نشر قصصي القصيرة بالكثافة التي كانت في السابق، لكني ما زلت أجد في كتابة القصة القصيرة ذلك الافتتان القديم، وما زلت أخبر إمكاناتها التعبيرية والجمالي، كشأن صديقي، الروائيين مبارك ربيع وأحمد المديني، اللذين رغم انشغالهما بكتابة الرواية وبكتابات أخرى، ما يزلان على نفس الوفاء القديم لكتابة القصة القصيرة، وكشأن كتاب عالميين كإرنست همنغواي وأرسكين كالدويل، جمعوا بين الكتابة في الجنسين. الأمر ليس مفاضلة بينهما، فلكل منهما حدوده ووسائطه في التعبير. في أعمالي الكاملة، تسع مجموعات قصصية، اثنتان منهما لم يسبق نشرهما، ولدي مجموعة قصصية هي العاشرة، تنتظر النشر.

❖ *يعرف المغرب حاليا حركية غير عادية تهم جنس القصة القصيرة، يقودها في الغالب قصاصون شباب. هل ترتبط القصة القصيرة دائما بفترة الشباب، أم أن ثمة وعيا جديدا لدى القصاصين المغاربة بأهمية جنس القصة القصيرة؟*

– أتابع باهتمام ما يكتبه جيل جديد من الكتاب المغاربة، وفي كل الأجناس الأدبية، فللشعر طفرته الجديدة، وللقصة القصيرة أقلامها التي أشرقت بالكثير من النصوص الجميلة، ومن هذه الأقلام ما انضم إلى جمعيات فاعلة في تخصيب الكتابة القصصية، ك"مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب"، التي احتضنت الكثير من الأقلام المبدعة، وأصدرت العديد من المجموعات القصصية المطبوعة بطابع التجديد، فضلا عن الكتب النقدية التي واكبت هذا الجنس الأدبي، ومجموعة" الكوليزيوم القصصي" التي نظمت عدة ندوات ولقاءات حول الكتابة القصصية، ونشرت كتابها الأول.

لكني لا أربط بين هذه الحركة وبين فترة الشباب، بل أربط بينها وبين الإشراقات السردية الجميلة التي يقدمها هذا الجنس الأدبي، وطاقاته الإبداعية في خلق اللحظة الاجتماعية والجمالية، وهو ما يشكل نوعا من الإغراء الذي يستقطب الكتاب والمبدعين.

❖ *هل يمكن اعتبار المغرب عاصمة مغاربية للقصة القصيرة، على غرار تونس كعاصمة للشعر، والجزائر عاصمة للرواية؟*

–الإبداع الأدبي، شعرا وقصة قصيرة ورواية، لا عاصمة له، فهو كوني، لأن خطابه يتجه نحو الإنسان أينما كان. ومع ذلك، فقد وجدت بعض الجهات الثقافية، في البلدان المغاربية، وفي المشرق العربي، اهتمت بالإبداع القصصي والشعري والرواية ونظمت له عدة لقاءات وندوات. وإذا كنت تسمي تونس عاصمة للشعر، فقد نظمت بها ندوات ولقاءات اهتمت بالكتابة الروائية العربية، وفي مدينة قابس خصوصا، التي أصبح لها تقليد عقد الندوات حول الكتابة الروائية العربية. وإذا كنت تسمي الجزائر عاصمة للرواية، فبها توجد جمعية "الجاحظية"، التي يرأسها الروائي الجزائري الكبير الطاهر وطار، وهذه الجمعية تنظم جائزة للشعر باسم الشاعر الجزائري الكبير مفدي زكريا، وقد نالها مؤخرا الشاعر المغربي إدريس علوش. أما وأنت تسمي المغرب عاصمة للقصة القصيرة، فقد نظمت بالمغرب عدة ندوات حول الرواية.

إن البلدان المغاربية الثلاثة، وبلدانا عربية أخرى على رأسها مصر، تعرف التفاتا خاصا نحو الإبداع الأدبي، وفي كل الأجناس، كما في الكتابة النقدية، بعد أن ظهرت حركة أدبية تجديدية وتحديثية، شملت كل الأجناس، كما شملت النقد الأدبي، أسس لها وعي جديد بماهية الأدب، وتصويره لتحولات المجتمع، واشتغاله على بناء الأشكال.

❖ *الأدب والنقد وجهان لعملة واحدة، لكنهما يظلان يتناوبان على القيادة، فمنذ أرسطو حتى القرن التاسع عشر، سيطر النقد الأرسطي وظل متحكما في الإبداع الأدبي والقراءة تحكما شبه مطلق، إلى أن انتفض الإبداع مع الثورة الرومانسية. هل تعتقدون أن الإبداع الأدبي في المغرب يقود النقد أم العكس، أم أن ثقافة حوار الصم هي السائدة؟*

– ظل النقد الأرسطي مؤثرا في كل النظريات النقدية التي جاءت بعده، سواء في الخطاب النقدي العربي القديم، أو حتى في النقد الجديد الفرنسي والأنجلوساكسوني. والأمر يرجع إلى التنظيرات الهامة التي جاءت مع كتابي أرسطو: "فن الشعر" و"فن الخطابة"، أو المفاهيم التي أحدثها كالمحاكاة والتطهير والباروديا وتقسيماته لأنواع الأدب. وهي تنظيرات ومفاهيم استفاد منها النقد الجديد وطورها وأضاف إليها. كذلك كان النقد الأدبي يبني ذاته وامتداده على الأسس النقدية التي جاءت مع النقد الأرسطي، فقد ظلت الأعمال الأدبية في حاجة إلى الوصف، والتقييم، والتفسير، لأنها لا تغتني إلا بما يمارسه الناقد عليها من فعل للقراءة، وهذا الفعل القرائي، عندما يتجاوز الانطباعية، والاعتماد على البلاغة القديمة، في مواجهة نصوص تأسيسية لقيم وجماليات أدبية جديدة، فإنه يستفيد من الخلفيات والمرجعيات النظرية، وهو أيضا، يكتشف في تلك الأعمال صَوْغَها الجديد لمعنى الذات ومعنى العالم وبناء الأشكال، ليؤسس على ذلك خطابا نقديا يتجدد في تنظيراته ومفاهيمه ومصطلحاته.

مسألة تبادل التأثر والتأثير بين النقد والإبداع الأدبي تشبه علاقة البيضة بالدجاجة، أيهما أسبق، وهي تشبه الأدوار المتبادلة التي يقوم بها الممثلون على خشبة المسرح الواحد. مع ذلك، فإن هيمنة النقد على الإبداع، أو ما سمي بسلطة النقد والناقد، ظل ينتمي إلى مرحلة في تاريخ النقد الأدبي، هي التي ارتبطت بالحكم على الآثار الأدبية وتقييمها بأحكام القيمة، انطلاقا من الذوق الأدبي للناقد وثقافته. وكرد فعل على هذه الوضعية، ظهرت سلطة الإبداع، التي اخترقت سلطة النقد، وفي وضع ثالث عرفته أوربا استعادت العلاقة بين النقد والإبداع توازنها، فقد جاءت الحركات الرومانسية والسريالية بتنظيراتها التي اجتمع فيها نقاد ومبدعون، وكتب الشاعر بودلير عن مدام بوفاري لفلوبير، وجاءت الرواية الجديدة في فرنسا بنقاد روائيين جمعوا بين الكتابة والتنظير. مع ظهور النقد الجديد، باتجاهاته النقدية، لم تعد ثمة من خصومة بين المبدع والناقد، فالتنظيرات والمفاهيم أصبحت ذات صلة وثيقة بالمدّ الإبداعي وإنجازاته النصية.

أما في المغرب، فقد كوّن النقد الأدبي تاريخيته من المراحل التي عاشها، وهي مراحل ارتبطت بالتحولات التي عرفها النقد الأدبي في أوربا، فمن النقد الإيديولوجي الذي ظل يحاكم الأعمال الأدبية بمواقع كتابها إلى نظرية الانعكاس التي جاء بها لوكاتش، إلى البنيوية والبنيوية التكوينية والنقد الباختيني والنقد السيميائي والتفكيكي والهرمينوتيقي والتأويلي الخ... هو مشهد نقدي ساهم في تكوينه نقاد مغاربة تكثر أسماؤهم كما تكثر أسماء المبدعين الذين تعرضت أعمالهم لهذا النقد، والذين كتبوا الشعر والرواية والقصة القصيرة. فمن المشرحة التي تعرضت إليها النصوص، إلى الغلواء في ربط الكتابة بنخبوية وبورجوازية الكاتب، إلى الوصف البنيوي، إلى المقاربة السيميائية، الخ...

في هذا المشهد النقدي، الذي عرف تاريخيته وتطوره وتقاطعاته، نجد أن النقد المغربي الذي ارتادته أقلام نقدية مغربية كثيرة، اجترحت نصوصا مغربية وعربية، كان وما يزال يبحث عن نفسه، مستلهما، أو متكئا على بعض الصنافات النقدية التي تنتمي إلى إنجازات نقاد غربيين أقاموها على نماذج من الأدب الغربي. لكن نظرية الأدب، بشقها الذي ينتمي إلى الشعرية، وهي تبحث في المبادئ العامة للأدب، وفي الأدبية،تردم هذه الهوة بين نص كتبه مغربي أو غير مغربي، كما أن علم السرد، بما أرساه من قواعد لدراسة السرد الأدبي، لا يميز بين نص كتبه مغربي أو غير مغربي. لذلك، فقد وجد في المغرب نقد أدبي يقترب من الدقة العلمية، المبنية على قواعد هذا النقد، كعلم، ومن احترام خصوصية الأعمال الأدبية، على سبيل الكشف عن هذه الخصوصية.

ليس ثمة من حوار للصم بين النقد الأدبي، وبين الإبداع الأدبي في المغرب، بل ثمة تحاور بين النص والقراءة. هذه هي القيمة التي وصلت إليها العلاقة بين النقد والأدب، وهي لحظة أدبية مشتركة بين النقاد والمبدعين، فكما أن النقد يبحث عن سبيل لتطوير أدواته وآليات اشتغاله، فالإبداع الأدبي يشتغل أيضا، بتطوير توسيعه للقاعدة الاجتماعية التي تشكل موادا بانية لأعماله، كما يشتغل على تطوير التقنيات الأدبية، والاشتغال على إستراتيجية الأشكال، التي منها يكتسب أدبيته.

❖ *إذا طلب منكم رسم جغرافية الرواية عربيا وجغرافية الرواية مغربيا، ما هو سلم التصاميم الذي سوف تستعملونه؟*

– الرواية العربية، ومنها الرواية المغربية، تعرف تواترا كبيرا في النمو، واطرادا في نشر نصوص متميزة، وهذا ما يلفت النظر إليها، فالتحولات الكبرى جارية في الإنجازات الروائية العربية والمغربية، بتدفق نصوص قوية على مستوى الاشتغال الذات، وتحولات المجتمع، والذاكرة الجمعية، والمنسي، والتاريخي المستعاد عبر الكتابة. إن ما يكتبه الروائيون العرب، والمغاربيون، والمغاربة، من أعمال روائية، وفي إنجازاته المتميزة، هو رهان على اشتغال روائي يجترح الذات ومجتمع الذات، ويوسع من آفاق الممكن والمحتمل والمتخيل، ولعل هذه الإنجازات لا تتميز بكونها طفرة أو موجة لها توقيتها الذي تتراجع فيه، بل إنها تتميز بأنها اشتغال على الكتابة الروائية، يعي تحولات المجتمع، وبالتاريخ الذي صنع هذه التحولات، ويعي أيضا بأن الرواية هي كتابة تكتب ذلك عبر اللغة، والمتخيل، وعبر اللعبة السردية. هذا الرهان، هو استعادة للذات العربية، والهوية العربية، من خلال تشكيل لحظاتها الصعبة والاستثنائية، من خلال التخييل الروائي. بالمناسبة، أذكر أعمال بعض أعمال الروائيين العرب والمغاربيين والمغاربة، قد أسست لمعنى الحفر في أركيولوجية مجتمع عربي له نداءات الذاكرة الخصبة، وجراح التاريخ وجراح الذات و الجسد، ولمتخيله الشعبي.

إن الرواية العربية اليوم، ومن ضمنها الرواية المغاربية، والمغربية، تتجه نحو اشتغال أساس على المجتمع ومجتمع الذات، وعلى الكتابة، باعتبارها وعيا شقيا بالمجتمع ومجتمع الذات، كما تشتغل على الكتابة باعتبارها صنعة روائية وبناء لإستراتيجية الأشكال. إذا كان هذا التصور لا ينسحب على كل الأعمال المنشورة، فهو ينسحب على الأعمال التي اكتسبت هذه الخواص الاجتماعية والجمالية، وهي كثيرة، والأسماء التي أنجزت أعمالا روائية بكل هذا البهاء، كثيرة، عربيا، ومغاربيا، ومغربيا.

❖ *ما هو أقرب أعمالكم إلى وجدانكم، وما هو العمل الذي تمنيتم لو عاد الزمن إلى الوراء، لتعيدوا كتابته وتنسيقه؟*

– في العشرين رواية التي كتبتها لحد الآن (ثمانية عشر رواية منها منشورة، وروايتان بصدد النشر)، لا أجد سبيلا للجواب عن هذا السؤال. لست أتعامل مع رواياتي بوجدان يشدني إلى إحداها، وإنما أتعامل مع الرواية التي أنجزتها على أنها تجريب لاختراق عوالم وتجريب لتقنيات سردية لا يمكن أن تتكرر في رواية لاحقة. هاجسي هو التجاوز. تجاوز ما أنجزته في اتجاه ما سوف أنجزه. في مختبري السردي لا توجد هذه الأفضلية بين كيمياء نص وكيمياء نص آخر. الروايات التي كتبتها ونشرتها أنساها عادة، ولا أتذكرها إلا حينما أريد أن أتجاوز عوالمها في اتجاه عوالم أخرى مبكرة، وأن أتجاوز تقنياتها السردية لبناء تقنيات أخرى، حتى لا يكون لي نص روائي يشبه الآخر. انظر مثلا: إن "رحيل البحر" لا تشبه "أيها الرائي"، و"مغارات" لا تشبه " خفق أجنحة"، و"أيام الرماد" لا تشبه "زهرة الآس"، و"امرأة من ماء" لا تشبه "حكاية غراب". إني أنسى ما كتبت ونشرت من أعمال، ولا أستحضرها إلا وأنا أبحث في مختبري السردي عن مغايرة في تفاصيل المحكي، وطرائق البناء، وتشكيل العوالم، والاشتغال على الكتابة نفسها من حيث هي لغة وتخييل.

إن توسيع العوالم، والاشتغال على الأشكال، هو يشغلني، ولا يشغلني تمجيد عمل من أعمالي، أو حتى أعمالي كلها. أنا مغامر بالكتابة والمغامرون من الرحالة ما كانوا يمجدون مكانا على حساب آخر، بل كانت لهم في كل مكان يرتادونه جراح حكاية. هكذا أنا أغامر بالترحل من نص روائي إلى آخر. أجد اللذة في الترحل عبر الكتابة، دون أن أقع في أسر عمل معين، أسقط في تمجيده، فذلك يعوق تجاوزه في اتجاه كتابة عمل آخر مغاير.

أما عن العمل الذي عاد الزمن إلى الأمام، وبعد نشره، وقمت بإعادة صياغته ومراجعته وتنسيقه من جديد، فهي أعمال كثيرة قمت بإعادة الاشتغال عليها، بمناسبة طبعة جديدة، أو بمناسبة نشر "أعمالي الكاملة" فكنت أتدخل بالتنقيح اللغوي تارة وتارة أخرى بإعادة البناء والتشكيل وتارة ثالثة بأعادة صياغة العمل صوغا جديدا. حدث ذلك مع الطبعة الثانية من "رحيل البحر" فمن يقارن بين طبعتها الأولى التي صدرت من بيروت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت وطبعتها الثانية التي صدرت عن منتدى أصيلة بالمغرب، سيجد أن تشذيبا لحديقة السرد الروائي قد وقع. وحدث مع "المباءة"، فمن يقرأ نصها الذي نشرته إفريقيا الشرق ونصها الذي نشرته مكتبة الأمة سيجد أن تعديلا كبيرا قد طرأ على النص، وكان ذلك بمناسبة تقرير الرواية على تلاميذ الثانوي.

التعديلات التي أجريتها على بعض أعمالي، لم تمس من كيان العمل ومضمونه وروحه، بل هي صوغ أدبي جديد له، يحافظ على خصوصيته ومعناه، ولكنه يعمل على تقديمه في حلة أكثر اقتصادا وبهاء، ربما! لم أكن أخون رواياتي التي مارست عليها هذا النوع من التعديل، بل كنت أبحث لها عن شكل أكثر ملاءمة، حتى وقد كانت قد صدرت في طبعة سابقة، واحتفى بها القراء والنقاد. لا أجد غضاضة في هذا الأمر، ولست خجولا من الرواية التي نشرتها، وكما هي، في طبعتها الأولى، بل أنا، ولقد استشرت العديد من النقاد في هذه المسألة، أملك الحق في إجراء مثل هذه التعديلات على النص بمناسبة طبعة جديدة.

هنا، ومن هذه المكابدة، أقول إنني لست أميل بحنين خاص إلى واحد من أعمالي، لكي أسميه، ربما لأن ما سبق أن كتبته من أعمال، لا يشدني أكثر من مما تشدني الأعمال الروائية التي أنا بصدد كتابتها، أو الأعمال التي استشرف كتابتها.

❖ *ما هو السؤال الذي تمنيتم لو طرح عليكم، ولم يطرح في هذا اللقاء الحواري؟*

– هو سؤال أنا الذي هو أنا، والذي ليس هو أنا، في أعمالي الروائية.

كتـــاب جـــديـــد

القاهـرة / وكالات

خلاصـــة فلـــسفـــة نجـيـب محفـــوظ مـن خلال أعـمـاله

تتعدد التفسيرات النقدية لاراء وأعمال الروائي المصري نجيب محفوظ وفقا لايديولوجيات النقاد وميولهم التي ربما ذهبت بعيدا عن النص وحملته ما لا يحتمل ولهذا تظل الاعمال نفسها هي الفيصل لمن أراد معرفة فلسفة الكاتب الذي لايزال العربي الوحيد الحاصل على جائزة نوبل في الاداب.

ويكتسب كتاب (حكمة الحياة.. مختارات وحكم وتأملات من أعمال نجيب محفوظ) أهميته من انعاش ذاكرة قارئ مضى عليه زمن لم يُعد فيه قراءة أعمال محفوظ كما تلخص فلسفة الكاتب لمن لم تتح له فرصة قراءة أعماله الغزيرة التي تزيد على خمسين رواية ومجموعة قصصية.

والقيمة الابرز للكتاب الذي أعدته المصرية علية سرور أنه ينسف المسافة بين أعمال محفوظ والقارئ وهي مسافة ربما تصنعها تأويلات لا يكون المؤلف بالضرورة مسؤولا عنها لكن بعض القراء يحملونه نتائجها.

ويقع الكتاب في ١٥٢ صفحة صغيرة القطع وصدر عن (دار الشروق) في القاهرة بمقدمة لمحفوظ (١٩١١-٢٠٠٦) أبدى فيها ترحيبه بجهد "الست علية سرور.. لفكرتها الممتازة لجمع زبدة أفكاري من مجموعة أعمالي.. هذه هي المرة الاولى التي يقوم بها أي شخص في تحمل القيام بمثل هذا الجمع من كتاباتي.. يشكل (الكتاب) ملخصا مثيرا لافكاري ونظرتي الى العالم على مدى ستين عاما من الكتابة."

ويبرز ايمان محفوظ بقيم عليا أولها الحرية والمساواة فيقول في كتاب (نجيب محفوظ في سيدي جابر) - وهو محاورات مع محمد سلماوي رئيس اتحاد كتاب مصر- ان "الادب الانساني الراقي يدعو دائما للحرية والمساواة" كما يقول في رواية (ليالي ألف ليلة) ان "الحرية حياة الروح وان الجنة نفسها لا تغني عن الانسان شيئا اذا خسر حريته" كما يرى في (أصداء السيرة الذاتية) التي كتبها في التسعينيات أن "أقرب ما يكون الانسان الى ربه وهو يمارس حريته بالحق".

وتبدو قيمة التسامح في أقوال كثيرة منها "عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق" كما جاء في رواية (ميرامار). وعن رحلة الحياة يقول في رواية (السكرية) مقارنا بين الشباب والشيخوخة "سوف تدول دول وتنقلب أزمان ولم يزل الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل جاد في اثرها. الشباب لعنة والكهولة لعنات فأين راحة القلب أين.." ثم يلخص هذا المعنى بعد عشر سنوات في رواية (ميرامار) قائلا "الشباب يبحث عن المغامرة. الشيخوخة تنشد السلامة" و"ما جدوى الندم بعد الثمانين.." وبعد عشر سنوات يسجل في رواية (الحرافيش) ١٩٧٧ أن "السعداء حقا من لا يعرفون الشيخوخة."

ويرى في روايته الاولى (عبث الاقدار) ١٩٣٩ التي استوحاها من مصر الفرعونية أن "فضيلة الزواج أنه يخلص من الشهوات ويطهر الجسد" لكنه سيقول لاحقا على لسان أحد الابطال في (بين القصرين) ان "الزواج أكبر خدعة. الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع" ثم يقر في (السكرية) وهي الجزء الاخير من ثلاثيته الشهيرة بأن "الزواج هو التسليم الاخير في هذه المعركة الفاشلة" وفي الرواية نفسها يقول أيضا "لولا الاطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد".

وانتهى محفوظ من كتابة ثلاثية (بين القصرين) و(قصر الشوق) و (السكرية) قبل ثورة يوليو تموز ١٩٥٢ واعترف بأنه تخلص بعد الثورة من مشاريع روائية عن الفترة السابقة نظرا لتغير الواقع الذي دفعه للتوقف عن الكتابة حتى عام ١٩٥٩ لان العالم القديم الذي سعى الى تغييره بالابداع غيرته الثورة بالفعل. ثم اكتشف أن للواقع الجديد أخطاءه فكتب رواية (أولاد حارتنا) وما تلاها من أعمال ذات طابع رمزي يجسد فلسفة الشك والبحث عن يقين ومعنى للحياة في روايات (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) و (الطريق) و(الشحاذ) و(ثرثرة فوق النيل) و (ميرامار).

وفي (السكرية) يقول "اذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى.. ربما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن معنى بينما أن مهمتنا الاولى أن نخلق هذا المعنى" وفي (الشحاذ) يكتب كأنه يستغيث "ما أفظع ألا يستمع لغنائك أحد ويموت حبك لسر الوجود ويمسي الوجود بلا سر" وفي (ثرثرة فوق النيل) يرى أن "ارادة الحياة هي التي تجعلنا نتشبث بالحياة بالفعل ولو انتحرنا بعقولنا" وفي رواية (يوم قتل الزعيم) يقول " الحياة فصول ولكل فصل مذاقه. وطوبى لمن أحب الدنيا بما هي.. دنيا الله" ولكنه لا يصل الى يقين فيتمنى في (السمان والخريف) أن تكون للانسان أكثر من حياة "نحن في حاجة الى أن نعود للحياة مرارا حتى نتقنها".

وفي (ثرثرة فوق النيل) يستعرض محفوظ مسيرة البشرية منذ فجر التاريخ ليصل الى أن "الانسان واجه قديما العبث وخرج منه بالدين. وهو يواجهه اليوم فكيف يخرج منه.."ولكن محفوظ سبق أن سجل في (السكرية) مقولة "العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها وهو دين المستقبل".

ويطل الموت بالحاح في أعمال محفوظ الذي تخرج عام ١٩٣٤ في قسم الفلسفة بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول (القاهرة الآن) وكان يعد نفسه لمهمة أخرى غير كتابة الرواية اذ كان مفتونا بالفلسفة وجاء ترتيبه الثاني ولكن لجنة شكلها قسم الفلسفة اختارت اثنين من زملائه لبعثة الى فرنسا لدراسة الفلسفة واستبعدته من استكمال الدراسات العليا. الا أنه بعد تخرجه عمل كاتبا في ادارة جامعة القاهرة حتى عام ١٩٣٨ وفي تلك الفترة التحق بالدراسات العليا وبدأ الاعداد لرسالة الماجستير بعنوان (مفهوم الجمال في الفلسفة الاسلامية) تحت اشراف الشيخ مصطفى عبد الرازق.

ويقول في (زقاق المدق) الصادرة عام ١٩٤٧ "ان الانسان ليعيش كثيرا في دنياه عاريا أما عتبة القبر فلا يمكن للميت الفرد أما بالنسبة للجماعة فيقول في (أولاد حارتنا) على لسان أحد الابطال "الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة" وفي موقف اخر يقول " لن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت" وهذا قريب من قوله "الايمان أقوى من الموت والموت أشرف من الذل" في (بين القصرين) وفي (السمان والخريف) يقول ان "أتعس الناس الذين يستوي لديهم الموت والحياة".

ويخالف محفوظ المقولة الشهيرة التي يؤكد فيها الجاحظ أن المعاني ملقاة على قارعة الطرقات اذ يقول في رواية (رحلة ابن فطومة) الصادرة عام ١٩٨٣ "لن تخرج المعاني الا لمن يطرق الباب بصدق" وفي الرواية نفسها يكاد الكاتب يلخص ما آلت اليه الامور قائلا "ديننا عظيم وحياتنا وثنية" وهذه الازدواجية انتقدها محفوظ في كثير من أعماله اذ كان يدعو الى دور ما للحياة الروحية ففي (السمان والخريف) يقول "الحق أن جميع البشر في حاجة الى جرعات من التصوف.. وبغير ذلك لا تصفو الحياة" وفي (اللص والكلاب) يرى أن "الدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبية".

ولكن محفوظ رغم كل شيء كان متفائلا اذ يقول في (المرايا) انه " مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التي قطعها الانسان من الغابة الى القمر".

نجيب محفوظ